الخمرة في شعر أبي الشّيص الخزاعيّ

م.د.عبد الأمير ماذي مذكور*

المقدمة:

مرَّ الشـــاعر العربيّ في تناوله قضية الخمرة على مستوى القصيدة بعد مجيء الإسلام بمراحـــل عدة، تتأثّر كلُّ مرحلة منها بقربها وبعدها الزمنيّ عن عصر الرّســـالة الأول، فكلّما كان الشاعر بعيدًا زمنيًا عن ذلك العصر، كان تناوله للخمرة أكثر حرية وأقل قيدًا في شـــعره، والعكس صحيح أيضاً، فكلّما اقترب من عصر نزول الوحي كان تناوله إيّاها على استحياء، أو هو لا يتناولها ألبتّة.

فهو حين يتناول الخمرة في القرون الهجرية الأولى يكون بين حالين، إمّا يتناولها مستثمرًا موقف بعض فقهاء المســـلمين في حِلّية بعضها، وهو لا يجد حرجًـــا بعد ذلك في التّغني بكـــسره قيد الحاجز الشرعي والمانع الديني، معتقداً أنّ في الدين ســـعة في تناوله إيّاها، فيضيف إلى عوامل التجديد والقوة في قصيدته عاملاً جديداً، وإنّ الحدود في تناول كل ذلك قابلة للكسر أو التجاوز من دون خسائر على مستوى الشريعة، وساعده في ذلك اختلاف آراء فقهاء المســـلمين في حرمتها من جهة، وعدم تناوله إيّاها على مســـتوى الواقع من جهة أخرى، فهو يكتفي بالتّغني بها والنّشـــيد لها من دون الوصول إلى واقع الاحتساء «وكان من أسباب انتشارها وإقبال الناس عليها أن أدّى اجتهاد بعض فقهاء العراق إلى تحليل بعض الأنبذة»[1]، وآخر لا يجد حرجًا في كسر القيد الشرعي والمانع الديني، بل هو يستثمر خروجه المثير على الشريعة لكسب الإلتفات إليه وشيوع نتاجه بين المتّلقين.

* الجامعة المستنصرية/كلية الآداب.

(١) تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، الدكتور شوقي ضيف، منشورات ذوي القربى، إيران، ١٤٢٧هـ ط ٢، ج٤/ ص٦٥.

عاش الشعراء العباســـيون شعورين حيال الخمرة، بين الطمع بها، والعزوف عنها، الأمر الذي لم يعشه شـــعراء الجاهلية أو شعراء صدر الرســـالة وكثير من شـــعراء العصر الأموي، فالجاهليون كان شـــعرهم واضحًا باتجاه الترغيب في الخمـــرة والدعوة إليها، لأنّهم كانوا يعيشـــون حالة اللادين، أو أن دينهم حينها لم يمنعهم من التغني بالخمرة أو احتسائها، وأما شـــعراء صدر الإســـلام وكثير من شعراء العصر الأموي فكانوا يعيشون حالة الشعور المستقر تجاه الخمرة، فهم حديثو عهد بعصر التنزيل، والكتابة عن الخمرة تعد خروجاً واضحاً على الشريعة.

أمّا في عصر بني العباس فإن الشـــعراء عاشـــوا حالين من الشعور: شـــعور الرغبة بها والكتابة عنها، وشعور الرهبة منها وتجنب الخوض فيها، ولكن بعدهم النسبي عن ســـنوات صدر الإسلام الأولى، وانفتاح الدولة على بهارج الدنيا وزخرفها وما انتجته الحضارتان الفارسية والرومانية، وما دخل على العرب بعد فتح البلدان من مفردات حياة متطورة، لاسيما على مســـتوى الخمرة والنساء، أسهم في أن يتناول الشاعر موضوع الخمرة بنسبة أقل من الحرج عند الشـــاعر الإسلامي والأموي، وأقل استقراراً من الشاعر الجاهلي، «وفي الحق أنّ الشعر قد ســـلك في أيّام بني العباس طريقة تكاد تخالف كل المخالفة أيام بني أمية، فنشـــأت معان جديدة. وذهب الشعراء مذاهب مختلفة في وصف هذه المعاني والتعبير عنها، ونشأ عن هذه المذاهب المختلفـــة ضروب من التّـــصرف في فنون القول والاختيار بين ألوان الكلام»[٢].

وقد وجد الشعراء أنفسهم أكثر حرية من العامّة أو ممّن لايشتغلون بالأدب أو الشعر خاصة في تناولهم لموضوع الشعر وبيئته، كما أنهم استثمروا فكرة أن لا يكون الخمر قد حرم تحريمًا باتًّا، أو أنّه أبيح من قبل فئة صغيرة من فئات فقهاء المسلمين، فقد تفاوت رأي علماء المســـلمين بشأن تحريم الخمرة وإجازة شربها، بـــين تحريمها تحريمًا باتًّا، وبين إجازة بعضها، وفق ظروف تحضيرها و طبخها[٣].

ولكن ماذا لو لم يجز بعض علماء المسلمين تناول بعض أنواع الخمرة، هل ســـيقف الشعراء منها موقف الملتزم المتدين الأصـــولي الذي لا يعارض الشريعة ولا يتجاوز خطوطها الحمر.

كما أن الشّـــاعر العربي حين يصف الخمرة، لعلّه يريد أشـــياء أخرى غيرها، من بـــين ذلك الجرأة والشجاعة. فإنّ اقتحام ساحة الممنوع في الشريعة، القريب إلى النفس والهـــوى، يُعدّ جرأة وقوة بحدّ ذاته، كما أنه يعد مغازلة للنفس التائقة للخمرة، المتحرجة بفعل النواة الشرعية والاجتماعية عنها، الأمر الـــذي فتح أبواب تنـــاول موضوع الخمرة واسعة حتى «تهالك الشـــعراء عليها من حولهم ،و أصبحت من أهمّ الموضوعات الجديدة في الشعر العباسي»[٤].

وســـاعد التهاون في تعزيـــر شرب الخمرة أيام انفتاح دولة بني العباس على تفشـــيها بشـــكل واسع، كما أن المجتمع آنذاك قد ورث عن المجتمع الساسانيّ الفارسيّ أدوات اللهو والمجون.[٥]

وقد تحولـــت الخمـــرة إلى موضـــوع مهم من موضوعـــات القصيدة العربية، و لها شـــعراؤها وجمهورهـــا وقصائدها، حتى أطلـــق على تلك القصائد بـ الخمريات، وعلى شـــعرائها بـ شعراء الخمرة أو الخمريين، فلم تعـــد موضوعا يطرقه الشاعر، ويمر عليه مرورًا في قصائده.

وقد ازدهر الشعر الخمري ازدهارًا واسعًا في مقابل أنّ الدين كان لا يحضّ على ذلك، وكأن في تحريمها إباحة، وفي منعها ســـماحًا شـــديدًا «ولا نزعم أن

(٢) حديث الاربعاء: طه حسين، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ١٩٨٠، ط٢،ج ٢/ص٣٤٠ (المجموعة الكاملة).

(٣) ينظر ضحى الإسلام: احمد امين، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط ١٠ – ج١/ص١١٩.

(٤) تاريـــخ الأدب العربي، العصر العبـــاسي الأول: ج ٤/ ص٦٧.

(٥) المصدر نفسه:ج ٤/ص٦٥.

تحريم الخمر في الإسلام قد قضى عليها، وأوهن من الفن الشعري الذي تناولها، إذ إننا نلحظ أن شعر الخمر قد ازداد ثراءً، واتّسع معجمه الفني»[٦]

ولم يقف الشعراء الخمريون موقف المحرج الذي لابدّ أن يسكت، وهو يمارس ما لا يتّسق والرؤية العامة في المجتمع، بل مارس هؤلاء الهجوم على تلك الرؤى الاجتماعية والتهكم عليها وعلى السياق العامّ، حتى إنّ أبا نواس (١٩٥هـ) دافع بشكل واضح عن فكرته في الدنوّ من الخمرة والمعصية، والابتعاد عن الصوم والصلاة، فيدعو لمخالفة المجتمع والخروج عليه، فيقول:

عاذلي فيها أطعني
وأقلَّ الآنَ لومي
واشربِ الرّاحَ ودعني
من صلاةِ كلِّ يومِ
وإذا ما حانَ وقتٌ
لصلاةٍ أو لصومِ
فارفعِ الصومَ بشربٍ
وامزجِ الخمرَ بنومِ
أبداً ما عشتَ خالفْ
دأبَ قومٍ بعدَ قومِ[٧]

ولّما كان الشعر وظيفة ثورية، وحيث إن بيئة الخمر بيئة مغرية لعوامل الدّهش والانفلات والابتعاد عن أجواء القصيدة السّاكنة المهادنة، وحيث إنّ الشّعراء يطمعون في مثلِ هذه البيئة، خاصة إذا ما استحصلوا ابداعاً أعلى وفناً أكبر، اندفع هؤلاء الشعراء باتجاه توظيف الخمرة في قصائدهم ومقطوعاتهم الشعرية، فهم يجدون فيها عاملاً مهماً من عوامل الالتفات لدى المتلقي، لاسيّما إن الدعوة للخمرة تعدّ بالإضافة إلى كلّ عوامل الخروج عن الشريعة ورؤية المجتمع، فهي كتابة متجددة عن موضوع يرغب الكثيرون بالدنوّ والاقتراب منه، غير أنهم يمتنعون عن ذلك ويجدون فيما كتبه هؤلاء الشعراء إرضاءً تتوق إليه نفوسهم وأرواحهم من الداخل.

فإن الشعراء (في الغالب) يقدّمون عملية الإبداع على ما دونه على مستوى الفن وإن كان في ذلك جرأة على أوامر ونواهٍ دينية خالصة، فكيف وقد أجيز بعض هذا الممنوع تناولا، أفلا يكون اقتحامه سهلا ومباحا لاسيما على مستوى الكتابة و التوصيف، وهذه فسحة واسعة، تمنح الإبداع دفقا وحيوية ويكون كلّ ذلك ضمن دائرة التجويز والإباحة، كما أنّه يكون خروجًا مدهشًا على نسقية بنائية الرّكون والسّكون ومهادنة القديم في القصيدة.

وقد اغتنم الشعراء هذه الفرصة، فرصة أن يتحدثوا عن محرم يتوق الكثيرون له، وتحول بينهم وبينه خطوط الشريعة الحمر، فيرسمون من خلاله عوامل الدهش الموزع بين كسر سكون الخضوع و الانقياد إلى الأمر الصعب، واقتحام باب العوالم الأخرى التي يتدفق منها الصخب والمرح والتجديد، بل الانحلال والتهتك أحيانا، وليس هذا سرًّا، يخجل من البوح به الناس، إنّه حديثهم الذي يغلفه الخوف من سوء عاقبة رسمها لهم الدين، فهذا ابن المعتز(٢٩٦ هـ) يصف أجواء الخمرة في القرن الثالث للهجرة أيام الأمين، ولعلّه من دون أن يعلم راح يشكّل خلجاته على صفحات كتابه (طبقات الشّعراء) منسابًا بشكل واضح، وراسمًا بكلمات وجمل اعتقاده وإيمانه المطلق بروعة أجواء الخمرة ورونقها، إنّه يصف أولاً مجلس السكارى كأنه الجنة التي وعد الله بها عباده الصالحين، فهو «مجلس لم تر العرب و العجم مثله»[٨].

وبعد أن يتمّ وصف المجلس وحيطانه وسقوفه وأبوابه المدهشة، وبعد أن يصف الندماء، يبذخ من الصفات العجيبة على البناء و الأثاث من أوانٍ، و ابريز ولازورد وذهب وجوهر وفرش وتماثيل

(٦) الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس- دار الكندي، بيروت ١٩٧٨، ط ١، ص ٣٣٠.

(٧) ديوان ابي نؤاس: شرحه و ضبطه وقدم له الاستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ط ١، ص٤٧٢.

(٨) طبقات الشعراء ابن المعتز، تحقيق عبد الستار احمد فراج ،دار المعارف، ط٤، ص ٢٠٩.

وفاكهة وعطر وعنبر ومســـك وكافور، ينتهي بعد ذلك كله ليصف الخمرة فيقول «اتي بالشراب كأنه الزعفران، أصفى من وصال المعشـــوق، وأطيب ريحا من نســـيم المحبوب، وقام سقاة كالبدور، بكؤوس كالنجوم، فطافوا عليهم..»[٩].

حين زجت الخمرة بالشـــعر، كان الشـــعراء على فريقين: فريق يتعاطاها ويعاقرها ويكتب عنها، وهذا إنما يوظف ما يعيش ويصف ما يحسّه واقعا وحقيقة، وهو على نوعـــين: الأول: يعلن عن ذلك صراحة دون خجل أو وجل، والآخر لا يعلن ذلك إلى النّاس إنّما يتناول الخمرة في شـــعره كما يتناولها غيره ممّن لا يحتســـونها، وأما الفريق الثاني فقد اكتفى بوصفها دون شربها، بل دون الاقتراب منها ومجالسة شاربيها، كما هي حال الفقهاء الشعراء ورجال الدين وغيرهم ممن يتحرّج من ذكر الخمرة لمنزلة اجتماعية أو دينية.

في علاقتِه مع الخمرة، جسّد أبو الشّيص الخزاعيّ (١٩٦هـ) من خلال شعره تأرجحاً واضحاً، يعكس إلى حد كبير حالة الواقع الإسلامي آنذاك، ولاسيما حال شـــعرائه، فهو بين حالي المدح لها ولأجوائها ولما تصنعـــه في معاقريها، وبين اللجوء إلى نواهي الشريعة و تحفظها عليها، فمن الجلّي الذي لا غبار عليه، أن المتتبعَ لديوانه يرى أن الشّاعر لم يقطع باتجاه دون غيره بالنسبة للخمرة.

ويبـــدو أن هذا الانشـــطار في الرؤيـــة متأثر في معايشة البيئتين، بيئة المعاقرة والصخب واللهو، وبيئة التّدين والحرص على مراعاة التشريع الديني والسلوك الجمعي في المجتمع آنذاك، على أننا نلحظ انحيازاً واضحا لصالح بيئة الخمرة على مستويي الكم والكيف في شـــعر الخزاعي، قد انعكس على الموقف من الخمرة في شـــعره، فهـــو يرغّب بها، ويدعو إليها وتطيب لـــه ويفرح بها تارة، وينهى عنها ويدفعها ولا يحض عليها، ويحذر من عاقبتها تارة أخرى.

فهو يقول:

وكميتٌ أرّقَها وَهَجُ الشمـ
ـس وصيفٌ يَغْلي بها وشتاءُ
طبختها الشّعرى العبور وحثَّت
نارَها بالكواكبِ الجوزاءُ
محّضتها كواكبُ القَيْظِ حتى
أقلعتْ عن سمائِها الأقذاءُ
هي كالسُّرْج في الزّجاجِ إذا ما
صبَّها في الزُّجاجةِ الوُصَفاءُ
ودم الشَّادنِ الذَّبيحِ وما يحـ
ـتلبُ السَّاقيان منها سواءُ
قد سقتني والليلُ قد فتقَ الصبـ
ـحَ بكأسينِ ظبيةٌ حوراءُ
عن بنانٍ كأنّها قضبُ الفضـ
ـضةِ حتى أطرافُها الحناءُ[١٠]

يؤنسن أبو الشّيص الخمرة هنا، ويتعاطف معها ويعيش ما تعيش من أرق وحبس، فهي محبوسة في كلّ فصول السّـــنة، وهو يعبّر في ذلك عن شغفِه بها وعشـــقه لها ولاســـيما حين يجعلها محاطة بالكواكب، بعيدة عن الأقذاء، وهو يتناص في ذلك مع أكثر شعراء الخمرة، أو هم يتناصون معه حين يشبهها بالسرج في الزجاج.

إن خطـــوات القصيدة هذه كتلـــك الخطوات في قصائد شـــعراء الخمـــرة الآخريـــن المعاصرين للشـــاعر، فهو حين يمدحها في تسميتها لا يطلق عليها ملفوظ الخمر أو الخمرة بشـــكل مباشر، ثم إنّه يصف مراحل طبخها وصبها في الدّنان، وبعد ذلك يصفها بين الكواكـــب إذ هي كقبس الضّياء في زجاجتها، حتى يصل بها إلى لونها الذي يشـــبه إلى حدّ كبير لون الـــدم القاني، وهكذا فهو ينتقل إلى الســـاقي المدهش الذي لابد أن يكون جميلا أو جميلة، تتســـاوق جماليته مع جماليات الخمرة و أجوائها، وفي ذلك يقول أبو نؤاس:

(٩) المصدر السابق: ص ٢١٠.

(١٠) ديوان ابي الشـــيص الخزاعي و اخباره: صنعة عبد الله الجبوري، المكتب الاســـلامي، بيروت ١٩٨٤، ط١، ص ٢٧ – ٢٨.

قلْ لِمنْ يبكي على رسْمٍ درسْ
واقفًا ما ضرّ لو كان جلسْ
اتركِ الرّبعَ وسلمى جانبا
واصطبحْ كرخيةً مثلَ القبسْ
بنتُ دهرٍ هجرتْ في دنها
ورمتْ كلَّ قذاةٍ ودنسْ
كدمِ الجوفِ إذا ما ذاقَها
شاربٌ قطّبَ منها وعبسْ(١١)

فجمع أبو نواس في أربعة أبيات: الخمرة والضّياء والقبس ثمّ طول مدة البقـــاء والمكوث في الدنان وتخلصها من القذارة والدنس، ثم إنّه يُشـــبهها بالدم أيضاً، وهذه ما جمعها أبو الشّيص في أبياته. لا يجد الباحث عناء في تشخيص التّناص والتداخل في أسلوب النّظم هنا وطريقته مع تلك التي سادت في القرنين الثانـــي والثالث مـــن الهجرة، حيث الوقـــوف طويلا في بيئة الخمـــرة وما يصاحبها، والوصف الدقيق لها وهي في الكأس قبل تناولها، وتشبيهها بالكواكب ومقارنة آثارها بالليل عنه في النهار، والتطرق الواضح إلى القائمين على تقديمها وطريقة صبّها من غلمان وغير ذلك، وهذا ما نجده متوافرا في دواوين المعاصرين للشاعر أو ممّن جاء بعده في القرن الثالث من الهجرة.

ومـــن الملاحظ أيضا أن الشـــعراء في هذه القرون الأولى يتجنبـــون ذكر الخمرة باســـمها هذا، فهم يرغبون بإطلاق أسماء غيرها، كالكميت والقهوة والعقار والسلســـبيل والراح والسلاف والرحيق والصهباء والعتيق والبابليـــة وغيرها، وهذا عائد للسبب الأول نفسه في عدم الرغبة باقتحام ساحة النصوص الإسلامية المقدسة، التي ذكرت الخمرة بشكل مباشر لاسيّما القرآن.

وحين يأخذك أبو الشّـــيص إلى هذه الأجواء التي ما انّفـــك يغريك للتواصل معهـــا، وهو في داخله يعيش وجـــع الاثنينية بين الرغبـــة والرهبة، بين الجنـــة والنار، بين الرحمن والشـــيطان، يأخذك أيضاً لضفاف النّهي عن الخمرة والدعوة للتقوى والاستعداد ليوم المعاد.

ظلّ هاجس الدين ملازما للشعراء، لا يستطيعون منه فكاكًا، لكن طمعهـــم في قضاء أوقات جميلة رطبـــة هيمن عليهم، غير أنّهم لم ينســـوا الآخرة والدّين فقد «كان أبو نواس وأصحابه على فسقهم ومجونهم يتدينون ويقيمون الصلاة، ولكنّهم كانوا يعبثـــون في هذا كما يعبثون في غيره، وربما قضوا الوقت الطويل عاكفين عـــلى الخمر، ثم يذكرون الصلاة فيقيمونها»(١٢).

إن أبا الشّـــيص يدرك أن تقدمه بالعمر لا يتّسق والجهـــر في معاقـــرة الخمرة، وهـــو بذلك ينذر نفســـه باقتراب أجله، حيث موقفه المنهي عنه في خُلة الخمر، ولكن أنّى لمن هو مثلُ أبي الشّـــيص وقد عاش ما عـــاش في أجواء القصف والمجون أن يســـتمرّ في أن يكبح جماح الإغراء باتجاه الخمرة وطقوسها، فهو يقول:

نهى عن خلةِ الخمرِ
بياضٌ لاحَ في الشَعْر
وقد أغدو وعين الشمـ
ـس في اثوابها الصُفْر
على جـــرداءَ قبّاء الـ
ـحَشا مُلْهِبة الحُضْر
بسيفٍ صـــارمِ الحدّ
وزقّ أحـــدب الظّهْر
وظبي يَعْطِـــف الأُزْرَ
وَيثْنيهـا على الخصْر
عـــلى ألْطـف ما شُدّت
عليـــه عُقَـــدُ الأُزْر
مهاة ترتمـــي الألْباب
عن قوس من السّحْرِ
لها طرْفُ يشوب الخَمـ
ـر للنّدْمـــان للخَمُرِ
عفيفُ اللحظِ و الأعضاءِ
في الصَّحْوِ وفي السُّكْر
عـلى عَذْراءَ لم تُفْتَـق
بنـــارٍ لا، ولا قِـــدْر
عجـــوزٌ نَسَجَ المـــاءُ
لها طوْقاً من الشّـــذْرِ
كأنَّ الذَّهـــب الأحمـر
في حافاتها يَجْـــري(١٣)

(١١) ديوان ابو نؤاس: ص ٣٠٥.

(١٢) حديث الاربعاء: ج ٢/ص٣٤٣.

(١٣) ديوان ابي الشيص: ص٦٠ ــ ٦١ ــ ٦٢.

انه يوفر ما للخمر من صفات سابقة وأجواء مشتركة، كان قد تطرق لها شعراء آخرون عاصروه، إنّها والشمس صنوان، ترتدي أثواباً صفرًا، وهكذا فإنّ الزق الذي تختمر فيه بمواصفات تشترك هي الأخرى مع المأثور الاجتماعي الجميل عند البيئة العباسية العربية، فالخصر نحيف ودقيق، وظهر حاد وصارم كالسيف.

وبعد أن يفرغ من وصف الأنثى الملهبة للقلوب صاحبة الطرف الذي يسكر النّدمان مع الخمر، ينتقل إلى وصف الغلام السّاقي، الذي يسكر بعفته وجماله، بالإضافة إلى أنّه يسكر من خلال الخمرة التي يقدمها في سكر أول، على أنه يغدق من صفات المرأة أجملها على خمرته، فهي عذراء لم يمسسها أحد، ولم يحتسها شارب قبله، ولم تسكب بإناء من قدر أو نحوه، وهي أيضاً عجوز معتقة مازجها الماء فأنتجت طوقا ذكيا وعبقا، بحدود من الذهب الأحمر الذي يجري استكمالا للدهش و الإثارة.

ثم يعود في القصيدة نفسها إلى الهاجس الذي يهيمن عليه في وجوب الرجوع إلى الله، فما ان يشارف على نهاية أبياته في قصيدته هذه، حتى يذكر من جديد حيرته المطلقة وخوفه الشديد من أهوال المستقبل القريب و الساعات الصعبة القادمة، وهو لا يملك من عوامل الفلاح الكثير، لكنه يعتمد على الله وعلى الصبر في مواجهة ذلك المصير المقلق، فهو يقول في ذيل القصيدة:

وليلٍ تركبُ الركبانُ في أجوافه الخُضْرِ
بأرضٍ تُقطعُ الحَيْرَةُ فيها بالقَطا الكُدْرِ
تمسكتُ على أهوائِها باللهِ والصّبْرِ
وإعمال بناتِ الريحِ في المْهَمه والقَفْرِ
شمالیل يُصافِحْنَ مُتونَ الصَّخْر بالصَّخْرِ
بإيجافٍ يَقُدّ الليلَ عن ناصيةِ الفَجْرِ[١٤]

وفي موضعٍ آخر من ديوانه، يتغنى أبو الشّيص بالخمرة من جديد، ويحاول أن يضعها في صف المتداول الشعبي الجميل، ولاسيما حين يقرنها بالمسك والعنبر، ويشربها بأوانٍ من الذهب والفضة، مبتعدا قدر إمكانه عن تسميتها بالخمرة، فهو يقول:

تمجُّ من أقداحنا قَهْوة
تضوع بالمِسْك وبالعَنْبَرْ
كأنَّما أقداحنا فِضَّة
قد بُطنت بالذَّهب الأحمر[١٥]

وهو في زهوه هذا وترنمه ونشوته، يقدم في قصيدة أخرى قدما في مدح الخمرة ويؤخّر أخرى في ذمّها، لينتقد آثارها وما تنتجه من نسق حياتي مختلف ومرفوض، ففي القصيدة نفسها يعيش الخزاعي شعورين من الرّفض و الرّضى، و التمرد و الركون، فهو يقول:

وسبيئة من كرْمها حِيريَّة
عَذْراء من لمس الرّجال شَموسُ
لم يفتقِ النعمانُ عُذْرتَها ولم
يَرْشفْ مجاجة كأْسِها قابوسُ
كتَب اليهودُ على خَواتِم دَنّها
يا دنُّ أنتَ على الزَّمان حَبيسُ
ذِمّيَّة صلّى وزَمْزَم حوْلَها
من آل برْمك هَرْبذٌ ومجوسُ
تجلو الكؤوس - إذا جلَت عن وَجْهها -
شمساً غذاها الشمس فهي عروسُ
عكفَتْ بها عُفْر الظّباء كأنَّها
بأكفهنَّ كواكبٌ وشموسُ
من كلّ مرتَجّ الرَّوادف أحوْرِ
كسْرى أبوه وأمّه بلْقيسُ
رَخُو العِنان، إذا ابتديت فخادِمٌ
وإذا صبوتَ إليه فهو جليسُ
يسعى بإبريق كأنَّ فِدَامَهُ
من لونها في عصفرٍ مغموسُ
يسقيك ريقَ سبيئةٍ حِيريّة
مما استباه لِفِصْحِهِ القسّيسُ

(١٤) ديوان ابي الشيص: ص ٦٠ ــ ٦١ ــ ٦٢.

(١٥) المصدر نفسه: ص ٦٥.

بين الخِوَرْنَقِ والسَّدير مَحِلَّة
للهّوِ فيها منزلٌ مطموس
فالنَّدّ من ريحانها مُتَضَوّعٌ
والظَّهر من غِزْلانها مدحوسُ(١٦)

فالشاعر في هذه الأبيات يذّكرنا بطريقة الكبار ممّن شرب الخمرة وعاقرها من شخص أو معتقد، كما يذّكر في مناطق ودول وممالك، ليكون كل ذلك شافعا ومبررا مقنعا لمزاولته الشراب، هو يستنجد بوسائل وأساليب عدة، لتبرير فعله في احتساء الخمرة، وهذا ما كان ليحصل لولا أن في قرارة الشاعر صوت مضاد ومعاكس لفعل الشراب والمنادمة، فكأنّه يستجير بقوة ما، وبأشكال وبوجودات خارجية لقمع صوت داخلي، يحاول أن يسحبه إلى الابتعاد عن هذا الفعل الذي يراه الخزاعي نفسه أنه مشين، أو أنه لا يستقيم وروح الشريعة وأوامر السماء.

فهو يزجّ (بالنعمان وقابوس) في أبياته و (برمك وهربذ والمجوس) و (كسرى وبلقيس) ويستجلب (اليهود) و(القسيس) لتدعيم موقفه كما يستحضر (الخورنق والسدير).

وهو في هذه الحال من النشوة و(القوة) نراه يضعف فجأة و يستشعر الدار الآخرة، ويتذكر صولات الزمان وما يفعله بأهله من صدع ونحس، وكأنّه يلتفت بعد شدة سكر، ويتيقظ بعد نوم عميق، فهو يقول في آخر القصيدة:

نحِسَ الزَّمانُ بأهْلِها فتصدّعوا
إنَّ الزمَّان بأهْلهِ لَنَحُوسُ
كنّا نحِلّ به ونحنُ بغبْطَةٍ
أيامَ للأيام فيه حَسيسُ(١٧)

إن أهل الزمان عند الشاعر هم أهل الدنيا، فهو يفرق في ذلك بين أهل الدنيا وأهل الآخرة، ليتم فكرته الأهم، ويتهم الزمان بشن الغارات على أهله، فيقوم بنحسهم والتضييق عليهم، ثم بعد ذلك مثابات النحس وعدم الهناءة، فيضيف للزمان الأيام ثم الدهر، ليعمق صورة النهاية المحتومة بالهزيمة أمام هذه المفردات، بل إن الشاعر يعدو على مفردات عدها في قصائد أخرى عوامل فرح وبهجة، ليضعها في صف مفردات النحس والموت، فهو يعد الكأس والمدام و العقار كذلك، فيقول:

فبنى عليه الدهرُ أبنيةَ البلى
فعلى رُباه كآبةٌ وعُبوسُ
وصريع كأس بتُّ أرقبُه وقد
نهشَتْه من أفعى المدام كؤوسُ
عقلَ الزجاجُ لِسانَه وتخاذَلتْ
رجلاه فهوْ كأنَّهُ ممسوسُ
سَطَتِ العُقارُ به فراحَ كأنَّما
مجَّ الرَّدى في كأسهِ الفاعوسُ(١٨)

ومن شدة اختلاط الوجع والسعادة عند الشاعر، كان يجد الحالين في كأس واحدةٍ، لأنه لايجدُ سوى الماضي الذي يجتره إمعانًا بالحصول على سعادة معاصرة، فهو يقول:

أعلل آمالي بكانت ولم تكن
وذلك طعم السُّم و الشهد في الكأسِ(١٩)

إن الشاعر يختصر في عجز هذا البيت كل أبياته التي توزعت على الرهبة من سوء عاقبة احتساء الخمرة، والرغبة العارمة في الدنو منها والاقتراب إليها، ففي ذات الكأس يجد سماً وشهداً، إنها ازدواجية الشعور بين الطمع فيها والهرب منها.

ولما كانت الخمرة عند أبي الشّيص تتوزع إلى حالين، ولعلّ هذا ما لا نجده متوافرًا بكثرةٍ عند غيره من الشعراء، فهي المعتقة التي ما انّفكوا يتغنون بسحرِها، لكنها تحولت هذه المرة إلى وجهٍ من وجوه الانكسار و الضياع، لا تعدو الخمرة عند أبي الشّيص سوى ذكرى تذكر بما لا يعود ولا يرجع، فهو يقول:

أبقى الزمان به ندوبَ عضاضِ
ورمى سواد قرونِه ببياض

(١٦) ديوان ابي الشيص: ص٧٢ – ٧٣.
(١٧) ديوان ابي الشيص: ص ٧٣ – ٧٤.
(١٨) المصدر نفسه: ص٧٣ – ٧٤.
(١٩) ديوان ابي الشيص: ص ٧٤.

نفرتْ[٢٠] به كأسُ النّديم وأغمضت
عنه الكواعبُ أيّما إغماضِ[٢١].

هذه الكأس المنادمة للشاعر، الأثيرة لديه، لم تعد طيعـــة يقودها لرغبته، بل نفـــرت من بين يديه، وتركته الكواعـــب وأغمضت عنه هـــذه الكأس المنادمة، وتحولت إلى كأس ندامة عند الشاعر ولم يعد يأنس بها.

وفجأة يصحو الخزاعي من كآبته ليتذكر الخمرة ومنجزاتها، بل يتذكر حرمتها، فيقسم بها، وكأنها مقدس من المقدســـات، بل إن لها حرمة ولاسيما العتيق منها، فهو يقول:

أمـا وحـــرمةُ كأس
من المُدام العتـــيقِ
وعقدُ نحـــرٍ بنحـرٍ
ومزجُ ريـــقٍ بريقِ
فقد جرى الحبُّ منّي
مجرى دمي في عروقي[٢٢]

وقد اتّســـق إيقاع الخمرة في روح الشـــاعر، وهو الإيقاع الداخلي للقصيدة مـــع الإيقاع الخارجي، حيث البحـــور الخفيفة القصـــيرة التي يختارها دون شـــعور منه، بل هو خيار روحه التي تبحث عن المواءمة بين الإيقاعين، فهي تبعث في نفســـه البهجة والخفة والراحة، كذلك البحر الذي يختاره لها، يكون قصيرًا غير طويـــل «وقد ابتكر بعض الشـــعراء بحورًا شـــعرية للخمرة، يصوّر فيها أجواءها الساحرة، فيعمد إلى البحور القصار غير الطويلة»[٢٣]

وبقي هاجس الجوع والحاجة في لاشعور الشاعر المنشـــغل بالخمرة، حتى ولو أراد غيرها، يستعين بتوظيفهـــا ليبلغ درجات عالية مـــن التأثير، بل لاسترضاء روحه التائقة للمدامة وما تصنع من أثر جميل في خاطره، فهو يقول:

أصْبت المُدام بريق الغمام
وقد زُرَّ جِيْب قميص الظّلامِ
فشاَبَتْ نواصي الدُّجى وانْفَرى
عن الصُّبْحِ سْربال ليل التَّمامِ
حبَوْتُ بها صَحن قارورةٍ
فأضحكتُها عن لسان الضَّرامِ
يطوف علينا بها أحْوَرٌ
كعول بعينَيْه ثقْل المُدامِ
غزالٌ نَسَجْنا له حُلَّتَيْن
من الآس والوْرد في يوم رام[٢٤]

تبعث الخمرة في الشـــاعر روحـــاً، تجعل تفتق الكلمات لديه متاح بمـــا يلائم حالة السرور التي تجتاحه، فأبو الشـــيص يمزج هنا (ريق الغمام) مـــع الخمرة حين اغلق الليل ســـتارته وزرَّ جيبه بظلام دامس، إلى ان بدا الشيب وهو بياض الصبح على نواصي هذا الظلام، وهو يريد معاقرة الخمرة طوال الليل حتى الصباح.

ثم إن الشاعر يرسم على خمرته صفات من اجتمعت بيئته على جمالها وأنوثتهـــا، فهو يؤنس الخمرة، ليجعل منها امرأة عذراء لم تُمس ولم تحتس:

وعَذراءَ لم تَفترَعها السُقاةُ
ولا استامها الشَّربُ في بيتِ حانِ
ولا آحتلَبَت دَرَّها أرجُلٌ
ولا وَسَمَتها بنارٍ يَدانِ
ولكن غَذَتها بألبـــانِها
ضُروعٌ يَحُفُّ بها جَدْولانِ
إلى أن تحوّل عنها الصَّبا
وأهدى الفطامَ لها المرضعانِ
فأحسبها وهي مكروعةٌ
تمتجُّ سلافَتُها في الأوانِ
عناقيد أخلافُهـــا حُفَّلٌ
تدرُّ بمثلِ الدّماءِ القَواني

---

(٢٠) نفـــرت الدابة: هربـــت، نفرت المرأة عـــن زوجها: أعرضت، ينظـــر القاموس المحيط: فصل النون باب الراء، مجد الدين، الفيروز ابادي، الموســـوعة العربية للطباعة و النشر، دار الجيل، بيروت لبنان.

(٢١) ديوان ابي الشيص: ص ٧٥ – ٧٦.

(٢٢) ديوان ابي الشيص واخباره: ص ٩١.

(٢٣) ينظر اســـاليب الصناعة في شعر الخمرة والاسفار= =بـــين الاعشى والجاهليـــين، محمد محمد حســـين، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٢، ص١٠.

(٢٤) ديوان ابي الشيص و اخباره: ص ١٠٣.

فلم تَزَل الشمسُ مَشغولةً
بصِبغَتها في بطُونِ الدَّنان
ترشّحها لِلثِامِ الرْجال
إلى أن تصدّى لها الساقيانِ
فَفَضّا الخواتِيم عن جَوْنةٍ
صدُوفٍ عن الفحل بكرٍ عَوانِ
عجوزٍ غذا المِسْكُ أصداغَها
مضمَّخة الجلد بالزعفرانِ
يطوفُ علينا بها أحورٌ
يَداهُ مِنَ الكأسِ مَخضوبتانِ
ليالِيَ تحسَبُ لي من سِنيَّ
ثمانٍ وواحدةٌ واثنتانِ
غلامٌ صغير أخو شِرَّةٍ
يطيرُ مَعي للهوى طائرانِ
جَرُور الإزارِ خَليع العِذَار
عليَّ لِعهد الَّبا بُرْدتانِ[٢٥]

وقد تناول الشعراء فكرة العذرية والبكارة في الخمرة، إمعانا في جعلها موقوفة على شاربها، لم يمسسها أحد من قبله، فهذا ابن الرومي (٢٨٣هـ) مثلا وهو من شعراء القرن الثالث للهجرة يقول:

وقهوة رقّت عن الهواء
أدفع للدّاءِ من الدّواء
عذراء لاحتْ في يدي عذراءَ
أحسنُ من تظاهر النعماء[٢٦]

على أن الشعراء العرب يسقطون ما في مخيلاتهم ورغباتهم المكبوتة من صفات الأنثى الحقيقية غير المتاحة، على الخمرة التي جعلوا منها أنثى يتناولونها حقيقة، وهي تتصف بصفات، هم الذين أسبغوها عليها كالعذرية و البكارة وغيرها من صفات أنثوية طاغية مغرية.

وقد تتبع أبو الشّيص الخمرة تتبع ملهم عاشق شغف، قد ملكت عليه مشاعره وتفكيره، فهو في هذه القصيدة «يحدثنا عن الخطوات التي مرت بها الخمر منذ اعتصارها إلى أن وصلت إليه عجوز تخفي تجاعيد الزّمن في وجهها، بما تضمخ به جلدها من طيب وزعفران»[٢٧]

وهو في أوج هذا المزاج المحلّق، يعود له هاجسه الأول بالخوف، وكابحه الذي يرافقه، يصيح به ثانية وثالثة، ليتذكّر مصيره المحتوم، لكنّه هذه المرة يقفُ بقوة في وجه كلّ هذه العوائق، فيصرح بعد أبياته السابقة بهذا التمرّد، وفي القصيدة ذاتها فيقول:

أصيبُ الذّنوب ولا اتّقي
عقوبة ما يكتب الكاتبانِ
تنافسُ فيَّ عيونُ الرّجال
وتعثرُ بي في الحجول الغواني
فأقصرت لما نهاني المشيب
وأقصر عن عذلي العاذلانِ[٢٨]

يريد بالعاذلين هنا الملكين على اليمين وعلى الشمال، وقد أشار بشكل صريح إلى معاناته مع (الكاتبين) اللذين يسجلان خطواته أوّلاً بأوّل، ولابدّ من الإشارة إلى أن هذين الملكين - بحسب النصوص الدينية- ليس لهما أي سلطة على أفعال الإنسان وإرادته، إنّما هما يسجّلان ما يفعل، لكنّ أبا الشّيص يريد أنهما يكتبان سوء ما يقوم به، فيعدهما عاذلين.

وقد سكن روع الشّعراء العبّاسيين فكرة التّوبة والرجوع عن المجاهرة بالخمرة والكتابة عنها، فهذا أبو العتاهية (٢١٣هـ) الذي استطاع أن يغلب فكرة المكوث طويلا إلى جانب الخمرة والإنشاد لها، حتّى إنّه عرف عنه الزهد والتّدين فيما بعد، فهو في أول أمره كان «يختلط ببيئات المجّان من الشعراء أمثال مطيع بن إياس ووالبة»[٢٩]، حتى «قد تشكك معاصروه في هذا الزهد الذي طرأ عليه»[٣٠]. وأمّا

(٢٥) ديوان ابي الشيص و اخباره: ص١٠٧ – ١٠٨.
(٢٦) ديوان ابن الرومي: شرح الاستاذ احمد حسن، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ج١/ص٧٥.
(٢٧) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، د. محمد مصطفى هدارة، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣ ص ٤٨٧.
(٢٨) ديوان ابي الشيص و اخباره: ص ١٠٨.
(٢٩) تاريخ الادب العربي العصر العباسي الاول: ج٣/ ص٢٣٨.
(٣٠) المصدر نفسه: ج ٣/ص٢٤١.

قصة أبي نواس وتوبته وتوسله الله أن يرحمه وأن يقبل تضرّعه، فهي معروفة.

إنّ الشّـــاعر العبّاسي، وقد دخلت في حياته بهارج الدنيا وزينتها، ليس بالإنســـان العادي الذي قد لا يحظى بمزاياها، أو لا تصادفه مفاتنها، إنّه المميز الذي يكون في أحيان كثيرة قريبًا من الســـلطة أو من رجال الدولة أو من الطبقة العليا في المجتمع، كما أنّه حـــين يجالس أقرانه الشّـــعراء والأدباء، تكون الخمرة والنّساء أولى المفردات التي يتناولها المجلس، فهو الانســـان الذي يمارس عليه المجتمع ســـلطته باتجاهين، الأول الانصياع لسلوك أقرانه وأكثر مجايليه، الثاني الابتعاد عن أهم موضوعات شـــعره وأكثرها تشـــويقاً أو الاكتفاء بممارسة دوره كإنساناً عادياً، يكتب الشّعر بعيداً عن المثير المدهش والجديد في الحياة العباسية.

وهذه انتفاضـــة يقوم بها الشـــاعر، يحاول من خلالها أن يســـتمتع بما أتيح له من مغريات، ولا يبالي بعد بالمانعين. ويطلـــب في أبيات أخرى من السّاقي أن يسقيه ولا يبالي وإن سمع صوت المؤذّن في الفجر، كما أنّه يطلـــب أن يُلطم ويُرمى، فهو استمتاع مشـــوب بالرّهبة والخوف من ذنب ملأ عليه خياله ووجدانه، فلا يذكر الخمرة إلّا وتذكر موانعهـــا الشّرعية والاجتماعيـــة، ولكنّه ينتصر بإرادته المنكسرة أمام لـــذّة الخمر، وينكسر أمام إرادته الضعيفة حيال الشريعة والحرمة، فيقول:

عاطنـــي كأسَ سلوة
عـــن أذان المـــؤذّن
ماترى الصّبح قد بدا
فـــي ازارٍ متّبـــنِ
فاسقنـــيها سلافـــة
والطمني وارمني[٣١]

فهو في البيت الثّالث، حيث يطلب من السّـــاقي أن يعطيه كأس السلوة، يطلب منه أن يلطمه ويرميه، وهو الشّعور السّـــادي الذي يعادلُ كفّة المجون والتّهتك في شخصيته.

إن جلّ ما يطلب هو أن يغيب عن هذه الدّنيا التي وضعته بين حالين، حـــال حلوة وممتعة غير أنها محرّمة ومنهي عنها، وآخرى صعبة وشائكة غير أنه محمودة الآخر وبعاقبة حسنة.

وكان هذا ديدنه حتـــى في نهاية حياته وطريقة قتله، حيث يذكر أبو الفرج الاصفهاني (٣٥٦هـ) قصة قتله الغريبة، فهو يُقتل مخموراً بيد خادم عقبة بن جعفر بن الأشعث الخزاعيّ، لكنّه يكره أن يمـــوت هكذا، فيطلب من الخـــادم القاتل أن يضع زجاج الخمرة المتكسّر في جرحه، ليقال بعد ذلك أنّه سقط في ســـكره على هذه (الدستيجة) فقتلته[٣٢].

إنّه الشّاعر الذي عاش ومات بين أمرين،لا يرغب في الفضيحة، ويطلب النّجاة وإن كان الموت.

●المصادر

ـ اتجاهات الشـــعر العربي في القرن الثاني الهجري، د. محمد مصطفى هدارة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣.

ـ اساليب الصناعة في شـــعر الخمرة والاسفار بين الاعشى والجاهليين، محمد محمد حســـين، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢.

-تاريـــخ الأدب العربي، العصر العبـــاسي الأول، الدكتور شـــوقي ضيف، منشورات ذوي القربى، إيران، ١٤٢٧هـ، ط ٢.

ـ حديث الاربعاء: طه حسين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٨٠، ط٢ (المجموعة الكاملة).

ـ ديوان ابن الرومي: شرح الاستاذ احمد حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.

ـ ديوان ابي نؤاس: شرحه و ضبطه وقدم له الاســـتاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ط ١ .

ـ ديوان ابي الشـــيص الخزاعي و اخباره: صنعة عبد الله الجبوري، المكتب الاسلامي، بيروت، ١٩٨٤، ط١.

ـ ضحى الإســـلام: احمد امين، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط ١٠ .

ـ طبقات الشـــعراء ابن المعتز، تحقيق عبد الستار احمد فراج دار المعارف، ط٤.

ـ القاموس المحيط: فصل النون بـــاب الراء، مجد الدين، الفيروز ابادي، الموســـوعة العربيـــة للطباعة والنشر، دار الجيل، بيروت، لبنان.

(٣١) ديوان ابي الشيص و اخباره: ص١٥٦.

(٣٢) ينظر الاغاني: ج١٥/ص١٠٨.